١٢

الحديث الأول عن مكة

وصل ابن بطوطة من المدينة إلى مكة بعد رحلة توصف بأنها ممتعة ، وقد سلك بين المدينتين المقدستين الدرب المطروق منذ أيام الرسول ﷺ ، واقتدى ابن بطوطة بالرسول الأكرم ، فأحرم قبل بدئه الرحلة من قرب مسجد ذى الحُلَيْفة على خمسة أميال جنوبَ المدينة وهو منتهى حرم المدينة .

ومن هناك أفضى إلى وادى العقيق فالروحاء فالصفراء ، ثم سهل بدر . وهو يصف بدراً وصفاً جديراً بأن نورد منه قطعة هنا ؛ لأنها تصور لنا مرحلة من مراحل تاريخ هذا الموضع المبارك الذى دارت فيه معركة من أصغر معارك التاريخ حجماً وأعظمها قدراً وأكثرها حسماً فى الوقت نفسه.

قال : « ونزلنا ببدر حيث نصر الله رسوله - صلَّى الله عليه وسلَّم تسليماً - ، وأنجزه وعده الكريم ، واستأصل صناديد المشركين ، وهى قرية فيها حدائق نخل متصلة ، وبها حصن منيع يُدخل إليه من بطن وادٍ بين جبال ، وببدر عين فوَّارة يجرى ماؤها ، وموضع القَلِيب الذى سُحب إليه أعداء الله المشركون ... وعند نخل القليب مسجد يقال له مَبرك ناقة النبى - صلَّى الله عليه وسلَّم تسليماً - ، وبين بدر والصفراء بريد فى وادٍ بين جبال تَطَّرِد فيها العيون وتتصل حدائق النخل » (ص ١٢٣) وهذه التفاصيل عن بدر ينفرد بها ابن بطوطة - فيما نعلم.

ومن بدر قطع ابن بطوطة مساحة قاحلة طولها « ثلاث» ، أى : ثلاث

ليالٍ ، ومعنى هذا أن القافلة كانت تسير بالليل وتكمن بالنهار لشدة الحر . وفى الليالى الثلاث تقطع القافلة نحو تسعين كيلومتراً ، وهو طول هذه المفازة من الطريق . وتنتهى هذه المفازة عند رابغ ، وهى موضع غُدران يبقى الماء فيها زمناً طويلاً ، « ومنه يُـحْرِم حُجَّاج مصر والمغرب ، وهو دون الجُحْفَة » .

ومن رابغ إلى خليص إلى عقبة السَّويق إلى بِركة خُليف ، وهى موضع مزارع ومياه وضِياع . « وعَرَبُ تلك الناحية يقيمون هناك سوقاً عظيمة يجلبون إليها الغنم والتمر والإدام ، ومنها إلى عُسْفان ، ومن هناك سَرَوْا طول الليل ، وأهلُّوا على مكة فى الصباح ، وهنا يحس ابن بطوطة ذلك الإشراق النفسى الذى يشعر به كل مؤمن يسعده الله بزيارة بلده الحرام .

ويعبِّر ابن بطوطة بلسان ابن جُزَىّ عن ذلك الشعور بقوله : « ومن عجائب صنع الله تعالى أنه طبع القلوب على النزوع إلى هذه المشاهد المُنيفة، والمثول بمعاهدها الشريفة ، وجعل حبها متمكناً فى القلوب ، فلا يَـحُلُّها أحد إلا أخذت بمجامع قلبه ، ولا يفارقها إلا آسفاً لفراقها متولِّهاً لبعاده عنها ، شديد الحنان إليها ، ناوياً لتكرار الوفادة عليها .. وكم من ضعيف يرى الموت عياناً دونها ، ويشاهد التلف فى طريقها ! فإذا جمع الله بها شمله تلقَّاها مسروراً مستبشراً كأنه لم يذق لها مرارة ، ولا كابد محنة ولا نَصَباً . إنه لأمرٌ إلهىٌّ وصنعٌ رَبَّانىٌّ ، ودلالة لا يشوبها لبس ، ولا تغشاها شبهة..»!.

إلى آخر هذا الكلام الجميل الذى يردِّده كل من زار مكة المكرمة ، وعرف مشقة السفر إليها ، فلمَّا حلَّ بها فاض قلبه بنور ومحبة وشوق يُنسيه ما لقى مِنْ نَصَب ، وتجعله يتمنى لو استطاع أن يزورها كل حين .

وتعنينا من أوصافه لمكة المعلومات الطريفة الجديدة التى نجدها عنده ! فهو مثلاً يحدثنا عن أبواب مكة ، ومعنى ذلك أن مكة كان لها أيامَ زارها

ابن بطوطة سور ، وفى السور أبواب ، ولا نجد عند الأزرقىّ مؤرخ مكة وواصفها حديثاً عن سور مكة وأبوابها على هذه الصورة .

وأبواب البلد التى يذكرها ابن بطوطة ثلاثة : « باب المعلَّى بأعلاها ، وباب الشبيكة من أسفلها ، ويُعرف أيضاً بباب العُمرة ، وهو إلى جهة الغرب ، وعليه طريق المدينة الشريفة ومصر والشام وجدة ، ومنهُ يُتَوَجَّه إلى التنعيم . وباب المُسْفَل[1] ، وهو من جهة الجنوب ، ومنه دخل خالد بن الوليد - رضى الله عنه - يوم الفتح » (ص ١٢٦) .

ويلاحظ ابن بطوطة ملاحظة هى الغاية فى الطرافة ، فيقول إن الله سبحانه وتعالى شاء أن تكون مكة بوادٍ غير ذى زرع ، ولكنه ساقَ إليها الخيرات من كل صوب ، « فكل طرفة تُجلب إليها ، وثمرات كل شىء تُجبى لها ، ولقد أكلت بها من الفواكه : العنب والتين والخوخ الطيِّب والرطب ما لا نظير له فى الدنيا ، وكذلك البطيخ المجلوب إليها لا يماثله سواه طيباً وحلاوة ، واللحوم بها سِمان لذيذات الطعوم ، وكل ما يفترق فى البلاد من السلع فيها اجتماعه ، وتُجلب لها الفواكه والخضر من الطائف ووادى نخلة وبطن مَرّ لطفاً من الله بسكان حرمه الأمين ومجاورى بيته العتيق » (ص ١٢٦) .

وبعد أن يصف ابن بطوطة المسجد الحرام « شرَّفه الله وكرَّمه » ، والكعبة المعظمة الشريفة والميزاب والحجر الأسود والمقام الكريم والحِجْر والمطاف وزمزم وأبواب المسجد الحرام وبعض المشاعر الشريفة ومآذن المسجد الحرام والصفا والمروة وغير ذلك من مشاهد البلد المحرَّم - يذكر لنا حكاية شيخ من معارفه ، خرج مع أصحابه لزيارة غار حراء ، وتخلَّف عن أصحابه فضلَّ الطريق حتى كاد يهلك عطشاً .

---

(١) المشهور : المَسْفَلَة .

ويذكر ابن بطوطة أميرى مكة أيامَ دخوله إياها ، وهما من بنى قتادة ، وهما الأخوان أسد الدين رُمَيثة وسيف الدين عُطَيفة ابنا الأمير أبى نُمَى بن أبى سعد بن على بن قتادة الحسنين ، ويحدثنا عن بيتهما وأولادهما ، ويذكر مكان بيت كلٍّ منهما فى مكة ، وكانت الصدارة لرُمَيثة .

فضائل أهل مكة

ويحدثنا عن أهل مكة وفضائلهم وجميل أفعالهم ومكارمهم ، ويقف طويلاً عند إطعامهم الفقراء ، ويعطينا صورة عن مساكين مكة الذين كانوا يعيشون دواماً على إحسان الناس من الخبز ، ويذكر كذلك عنايتهم بالأيتام، وكيف كان هؤلاء يقعدون بالسوق ويحملون للناس أشياءهم إلى البيوت لقاءَ أجرٍ زهيد؟ ويضيف: « فلا يذكر أن أحداً من الصبيان خان الأمانة فى ذلك قَطُّ ، بل يؤدى ما حمل على أتمِّ الوجوه ، ولهم على ذلك أجرة معلومة من فلوس » (ص ١٤٣).

نظافة أهل مكة

ويمتدح ابن بطوطة نظافة أهل مكة ونصاعة بياض ملابسهم وكثرة استعمالهم للطِّيب والكحل ، ويصف نساء مكة بقوله : « ونساء مكة فائقات الحسن بارعات الجمال ذوات صلاح وعفاف ، وهنَّ يكثرن التطيب، حتى إن إحداهنَّ لتبيت طاوية وتشترى بقوتها طِيباً ! وهنَّ يقصدن الطواف بالبيت فى كل ليلة جمعة ، فيأتين فى أحسن زى ، وتغلب على الحرم رائحة طيبهنَّ ، وتذهب المرأة منهنَّ فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عَبِقاً » .

إمام الموسم

ثم يتحدث عن قاضى مكة وخطيبها وإمام الموسم، ويهمنا هذا الأخير؛ لأنه يشير إلى تقليد خاص بموسم الحج وهو اختيار إمام للموسم، وهو فى أيامه إمام المالكية بالحرم الشريف ، وهو الشيخ أبو عبد الله محمد بن الفقيه أبى زيد عبد الرحمن المشتهر بخليل ، وأصله من بلاد الجريد فى جنوبىّ تونس الحالية ويُعرفون هناك ببنى حبون .

وكان نزول ابن بطوطة فى المدرسة المظفرية ، وقد رأى رسول الله ﷺ فى

منامه » وهو قاعد بمجلس التدريس من المدرسة المذكورة بجانب الشباك والناس يبايعونه، فكنت أرى الشيخ أبا عبد الله - المدعو بخليل - قد دخل وقعد القرفصاء بين يدى رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم تسليماً - ، وجعل يده فى يد رسول الله ﷺ وقال : « أبايعك على كذا وكذا ، وعدَّد أشياء منها : وألاَّ أردَّ من بيتى مسكيناً خائباً، وكان ذلك آخر كلامه ، فكنت أعجب من قوله ، وأقول فى نفسى : كيف يقول هذا ويقدر عليه مع كثرة فقراء مكة من اليمن والزَّيالعة والعراق والعجم ومصر والشام ؟ وكنت أراه حين ذلك لابساً جبة بيضاء قصيرة من ثياب القطن المدعوَّة بالقفطان ، كان يلبسها فى بعض الأوقات ، فلمَّا صليت الصبح غدوت عليه وأعلمته ، فَسُرَّ بها وبكى ... » (ص ١٤٢).

أهل مكة يأكلون مرة واحدة فى اليوم

ومن طرائف ما يحكى أن أهل مكة « لا يأكلون فى اليوم إلا مرة واحدة بعد العصر، ويقتصرون عليها إلى مثل ذلك الوقت ، ومن أراد الأكل فى سائر النهار أكل التمر ، ولذلك صَحَّتْ أبدانهم وقَلَّتْ فيهم الأمراض والعاهات » (ص ١٤٢) .

ويكثر ابن بطوطة من الحكايات التى سمع بها فى مكة ، وخَاصَّةً عن المجاورين ، وهم فى العادة من كبار الشيوخ الذين يقررون ترك بلادهم وقضاء بقية أعمارهم مجاورين فى مكة ، ومنهم الشيخ سعيد الهندى شيخ رباط كلالة ، وكان ملك الهند قد أعطاه مالاً كثيراً فقدم به مكة ، فاستولى منه على المال الأمير عطيفة بعد أن عذَّبه .

ثم يذكر قصة نفر من التجار خرج عليهم لصوص الهند المعروفون بالسُّرَّاق - ونحن نسمِّيهم اليوم بالقراصنة - فسرقوا ما معهم، ويضيف: ومن عادة هؤلاء السُّرَّاق أنهم لا يقتلون أحداً إلا حين القتال ، ولا يغرقونه، وإنما يأخذون ماله ويتركونه يذهب بركبه حيث شاء ، ولا يأخذون المماليك ؛ لأنهم من جنسهم ، والمراد أنهم من مماليك الهند .

ومثل هذه الملاحظات والأخبار هى التى تعطى رحلة ابن بطوطة تلك القيمة الحضارية التى تمتاز بها على غيرها من كتب الرحلات ، فهذا الرجل رجل حضارة حقًّا ؛ فهو يلمس الجوانب الإنسانية عند من يلقاهم من الناس ، وهو شديد الالتفات إلى كل ما يتصل بالحياة اليومية وما يسترعى نظره من عادات الناس وتقاليدهم وأحوالهم ، فالصورة التى يعطينا إياها عن عالم الإسلام فى عصره صورة حضارية ولوحة اجتماعية تنقلنا إلى الجو الذى كان يعيش فيه ، وتجعلنا نشاركه فعلاً فى كل ما مرَّ به من تجارب وما لقى من ناس ، وما طعم وما شرب ، بل إننا نحس معه بإحساسه فيما نزل به من البلاد وما لقى من الجماعات ، وهذا وحده جدير بأن يجعل تلك الرحلة كتاباً فى الحضارة ووثيقة اجتماعية ، وحَسْبُ الرجل ذلك .

* * *